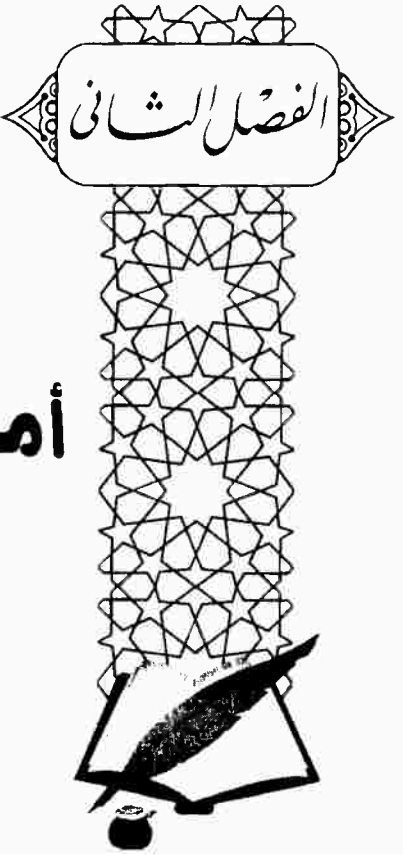

أماكن العبادة وأشهرها

الفصل الثانى

أماكن العبادة وأشهرها

حين يتطرق الحديث سواء المجمل أو المفصل عن ماهية أماكن العبادة المشهورة والتى جاء ذكرها فى القرآن الكريم، لا بد أن يطفو إلى الأذهان.. رغماً أو طواعية كل من المسجدين الحرام والأقصى، باعتبارهما من أقدم أماكن العبادة التى أقيمت فوق سطح الأرض. وكان للملائكة وأنبياء الله المصطفين الأوائل مشاركة مهمة فى إقامتهما، وبوحى من رب العالمين.

وهناك مئات من الكتب والمراجع وكتابات المؤرخين والمفسرين الذين تحدثوا عن هذين المسجدين الشريفين. بل وشاركهما أيضا علماء الآثار والفنون والعمارة والجغرافيا كل فى تخصصه من أجل إخضاعهما للدراسة، وكان ذلك منذ أن عرف الإنسان التدوين.

وبما أننا وفى هذه الأوراق نقدم حصراً شاملاً لكل الأماكن المشهورة فى كتاب الله العزيز، فقد وقع اختيارنا ومن خلال أوراق هذا الفصل على أماكن العبادة التى ذكرها كتاب الله العزيز من أجل أن نعرف بها ونكتشف بعض تاريخها.. وهذا سوف يتطلب منا قراءة متأنية لكل صفحات القرآن الكريم من أجل حصر هذه الأماكن وذكرها، والحديث عنها بالتفصيل المطلوب.

والشىء الطيب الذى قابلناه فى هذا البحث هو أن القرآن الكريم نظراً لعظمته وعظمة ما جاء به قد ذكر لنا كل أماكن العبادة التى تخص الديانات الثلاث.. وهذا دليل واضح على وسطية دين الإسلام واعترافه بما سبقه من أديان سماوية تدعو فقط لعبادة الله الواحد الأحد.. هذه العبادة التى حتماً ولا بد أن تتم داخل هذه الأماكن المطهرة، والتى سميت فى كثير من الأحيان ببيوت الله فى الأرض.

ولقد عرفنا حتى من القراءة الأولى أن هذه الأماكن الطاهرة لا يمكن أن تطأها

الأقدام إلا بعد أن تتطهر من كل دنس وخبث ومكروه، حيث سيقف الإنسان الداخل إليها بين يدى الله رب العالمين. بل وعليه أن يتحدث إلى الله. مما أنزله من كلمات يحفظها كل منا، كما عرفنا كذلك أن لهذه الأماكن تقدير وتقديس خاص واحترام مفروض على الجميع، هذا الاحترام جعل من حق أصحابها الدفاع عنها ضد ما يصيبها من شر وسوء وتدنيس.

وأكثر من ذلك فقد جعل الله تعالى أماكن العبادة الخالصة لله وحده تحفها الملائكة، ويستجاب فيها الدعاء، وينال من يدخلها ثواباً عظيماً فى الدنيا والآخرة، ذلك لأنه يعلم علم اليقين بأنه ذاهب إلى أحدى بيوت الله فى الأرض لعبادته ومناجاته وطلب رحمته ومغفرته ولذلك فلها التقديس والاحترام والمهابة.

ومما لاحظناه حين سمحنا لأنفسنا بجولة بصرية وعقلية داخل كتاب الله الكريم.. أن هذا القرآن العظيم قد أشار إلى أماكن عبادة بعينها وهى التى خصها بالاسم والمكانة والتقديس، فى حين أشار إلى غيرها على أنها أماكن تأخذ صفة العمومية وبدون تحديد لهذا المكان أو لغيره.

ونظراً لما يتصف به دين الإسلام من مصداقية ثبتت على مدى الدهور السابقة، وبالتالى لم يتعرض لأى تعديل أو تبديل مثل غيره من الديانات الأخرى، فقد اهتم القرآن الكريم بأماكن العبادة الإسلامية أكثر من غيرها، وهذا يدل دلالة كبيرة على استمرارية هذا الدين الحنيف وإزدياد أتباعه إلى يوم القيامة، فى مقابل الأديان الأخرى التى تلوثت وتدنست وشوُهت، وبالتالى لم يعد من أتباعها إلا القلة التى تتصف بالصدق والأمانة، كما يدل أيضا دلالة واضحة على تنبؤ القرآن الكريم باستمرارية دين الله الحنيف فى قوة ومنعة وسط أهله وأتباعه من الذين يسارعون دوماً إلى دور العبادة لمناجاة رب العالمين وطلب المغفرة وأداء الصلاة فى خشوع وفق ما تعلمناه من رسول الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام.

ولعل من أشهر أماكن العبادة التى ذكرها كتاب الله فى محكم آياته - كل من

الكعبة - المسجد الحرام - المسجد الأقصى - المشعر الحرام - عرفات - الصفا والمروة - مقام إبراهيم - المحراب - الباب - صوامع - صلوات.

ولسوف يكون لنا مع كل مكان من أماكن العبادة المشهورة فى القرآن الكريم وقفة أو وقفات تطول أو تقصر حسبما يتوفر لدينا من معلومات مسبقة لنا ولكم، ونرجو من الله أن يوفقنا فى حالة دخولنا إلى كل هذه الأماكن التى يُعبد بها رب العالمين خاشعين.. بعدما نعرف عنها الشىء المطلوب.

** بيع .. كنائس النصارى:

من المفترض أن بيع كمكان جاء ذكره فى القرآن الكريم إنما يشير إلى مكان عبادة النصارى من أتباع عيسى عليه السلام لله الواحد الأحد، وفق ما أشار إليه ربنا تعالى فى كتابه العزيز من أنه هو الإله الواحد الأحد.. وأن عيسى هو عبد الله.. ولكن وكما نقرأ حتى فى القرآن الكريم نفسه فإن أتباع المسيح عليه السلام قد خرجوا عما جاء به نبيهم الكريم بشأن عبادة الله.. وبأنه رسول الله لهم ولبنى إسرائيل، وقد استبدلوا ذلك بما تصوره هو الحق.

ولقد كشف الله هذا الزيف وحذرهم مما أخذوا يرددونه عن ذات الله العليا وعن نبيهم الكريم عيسى ابن مريم عليه السلام، وللأسف فقد أصروا على ماهم فيه من ضلال وزيف وبالتالى فقد انحرفوا بعباداتهم عن طريق الله.

وحين لجأنا إلى المعاجم اللغوية لمعرفة أصل كلمة «بيع» ومعناها.. وجدنا أن معناها «كنائس» .. وأنه جاء ذكرها كمكان للعبادة بشأن النصارى فى سورة الحج وفى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا دفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ (الآية ٤٠) .

والمدقق فى معنى هذه الآية الكريمة يكتشف أنه من رحمة الله على عباده أن تدخلت مشيئته لحماية أهل كل الديانات الثلاث وهم اليهود أصحاب الصوامع والصلوات وأصحاب البيع وهم النصارى ثم أصحاب المساجد وهم أهل الإسلام.. حيث منع الله تعالى كل صاحب دين مع اختلافه حتى مع الله من التعرض لغيره من

أصحاب الديانات الأخرى، ولولا ذلك لتشابك كل منهما مع من يخالفه حتى ربما يصل الأمر إلى هدم هذا المكان والذى من المفترض أن يكون مخصصاً لعبادة الله الواحد الأحد!

ويقول المفسرون أن هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿لولا دفع الله الناس﴾، فلولا إبعاد الناس بعضهم عن بعض فيما يخص عقائدهم الدينية لتولت كل فرقة مسئولية تدمير مكان ما يعبدون فيه ربهم بصرف النظر عن صوابهم أو خطأهم، وتلك من رحمة من الله العظيم وسمة من سمات سماحة دين الإسلام الذى يتحدث فيه الكتاب الكريم عن تلك الرحمة.. إذ ترك الله تعالى عقاب الذين ينحرفون بعقائدهم وإيمانهم بالله العزيز .. إلى جلال عظمته وقدرته دون غيره حيث يشاء ومتى يشاء!، وبالتالى فليس للإنسان دخل فى هذه المسألة إلا بالدعوة والموعظة الحسنة. فمن آمن وعرف الحق وعاد إليه فلنفسه ومن رفض فسوف يكون حسابه على الله رب العرش العظيم.

وهنا لابد من التأكيد على عظمة القرآن الكريم وعظمة الله تعالى خالقه وسماحة دين الإسلام. إذ يذكر لنا الله تعالى فى كتابه العزيز «البيع» كمكان عبادة للنصارى رغم ابتعادهم عن الله حتى فى هذه الأماكن وانحرافهم عن الطريق المستقيم، ونجدهم من جانب آخر يختارون كلمة أخرى غير بيع أو بيعة، إذ نراهم يتحدثون كثيراً عن الكنيسة والكنائس، وهو لفظ ربما لم يرد فى أى كتاب مقدس منزل من السماء.

وبما أننا عرفنا لغويًا أن كلمة بيع يقابلها كلمة كنائس، فقد رأينا أن نتوسع فى الحديث عن اللفظ الجديد باعتباره مرادفاً للكلمة المذكورة فى كتاب الله .. وما سوف نذكره هنا إنما يخرج عن دلالات الدين إلى المعرفة الثقافية العامة.

وما نود أن نشير إليه هنا أن لفظ «بيع» كمكان مشهور ويرتبط بأحد أصحاب الديانات إنما جاء فى القرآن الكريم على صفة العموم.. بمعنى أنه ليس هناك بيعة معينة يمكن أن نشير إليها ونقول إنها المقصودة من هذا الحديث. وهى تندرج بذلك تحت بقية ما ذكره لنا كتاب الله عن أماكن العبادة العامة من دون تخصيص باعتبارها

أماكن للعبادة غير مقيدة بحدود زمان أو مكان. وهناك من المؤرخين ومن الدارسين الذين تحدثوا عن أصل كلمة بيع ومصدرها، واللغة التى وجدت بها، ومن هؤلاء القس إكرام لمعى الذى وجد أن لفظ بيع يقابله فى اليونانية لفظ الكنيسة. ومعناه «دعوة الشعب للاجتماع معاً». كما أنها تطلق حالياً على كل الشعب المسيحى فى كل بلاد العالم باختلاف طوائفهم. كذلك هى مرادفة لكلمة شعب الله المختار فى العهد القديم. (١) ويقول أيضاً أن مفهوم إسرائيل فى العهد القديم أصبح يناظره مفهوم الكنيسة فى العهد الجديد.

وهناك رواية تاريخية مشكوك فى صحتها نُسبت لإحدى ملكات الإمبراطورية الرومانية التى تولت تنظيف قبر المسيح بعدما آمنت برسالته حسب زعمهم والموجود حاليا فى بيت لحم، عندما حول اليهود هذا القبر إلى مقلب للقمامة أو الكناسة! وعندما آمنت هذه الإمبرطورة بالديانة المسيحية انتفضت هى ورجالها من أجل تنظيف هذا القبر مما فوقه من كناسة!! ولذلك نرى بعض الدارسين الذين يرجعون لفظ كناس أو كنيسة إلى ما كان من أمر الكناسة فوق هذا القبر المزعوم!!

والشىء المثير للدهشة أن أحداً من الدارسين للديانة المسيحية لم يتناول بشىء من التفاصيل مفهوم البيع وعلاقتها بالكنيسة أو على أنها تعنى الكنيسة. ولقد عثرنا على المعنى المقابل لفظياً له وكما ذكرنا ذلك من قبل فى معجم ألفاظ القرآن الكريم وفى العديد من المعاجم العربية.. ويبدو أن مصدر هذا اللفظ مرتبط بالبيعة أو العهد على السمع والطاعة.

وبدلاً من أن يحدثنا فقهاء النصرانية ومؤرخوها عن «البيع» كما جاء ذكرها فى كتاب الله حدثونا عن الكنيسة والكنائس من حيث نشأتها وأنواعها ودورها الدينى عندهم . ونحن بدورنا سوف نعتبر حديثهم عن الكنائس وكأنهم يقصدون حديث «البيع»، وعلى أية حال فإنها جميعها معلومات لا بد من الوقوف عليها على الأقل من باب العلم بالشىء وليس الجهل به.

(١) الاختراق الصهيونى للمسيحية- القس إكرام لمعى.

أن من الشائع فى العقيدة المسيحية أن هناك ثلاثة مذاهب للكنائس .. هى الكنيسة الكاثوليكية والقبطية الارثوذكسية والكنيسة الإنجيلية.

فى تفسير ذلك أكثر قال المؤرخون: إن الكنيسة الكاثوليكية، هى الكنيسة التى يرأسها بابا الفاتيكان وهى الكنيسة التى بدأت مع اختيار الإمبراطورية الرومانية الديانة المسيحية كديانة رسمية لها فى أوائل العصور الوسطى، أما الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، فهى الكنيسة المصرية التى بدأت بالإسكندرية فى مقابل كنيسة روما. وقبطى هنا تعنى مصرى، أما كلمة ارثوذكسى فتعنى مستقيم الرأى . ثم الكنيسة الإنجيلية التى تعتبر الإنجيل هو المرجع الوحيد لها دون تغير أو تقليد، وهى تعود بفكرها إلى المسيح عليه السلام، كما جاءت فى حركة الإصلاح فى القرن السادس عشر والتى أطلق عليها حركة البروتستانت. وهى تعنى المحتجون، نسبة إلى الاحتجاجات التى قادها «مارتن لوثر» قائد الإصلاح ضد الكنيسة الكاثوليكية فى روما. (١)

ومما لا شك فيه أن الدين الإسلامى ورجاله الأولون كانوا أصحاب مواقف مشرفة تجاة أصحاب الديانات الأخرى من الذين أطلق عليهم القرآن الكريم أهل الكتاب سواء أكانوا من اليهود أو من النصارى.

ولقد امتدت هذه المواقف المشرفة والعادلة تجاه كل هؤلاء فيما يخص أماكنهم المقدسة أو أماكن عباداتهم على مدى التاريخ كله.. ففيما يخص النصارى من أتباع المسيح عليه السلام.. فقد تسامح معهم المسلمون منذ الفتح الإسلامى الأول.. وشملوا كل ما يخص حياتهم الدينية بالرعاية وكان على رأس ذلك بطبيعة الحال كنائسهم أو بيعهم.

ولقد اعترف بذلك معظم المؤرخين المسيحيين المنصفين لأنهم استندوا فيما توصلوا إليه إلى وقائع تاريخية حقيقية سجلها أبناء النصارى أنفسهم فى كتاباتهم. والمعروف أن هذه المواقف الطيبة تجاههم وتجاه أماكنهم المقدسة بدأت منذ صدور

(١) الاختراق الصهيونى للمسيحية ـ مرجع سابق.

ذلك العهد الذى وضعه عمر بن الخطاب فى أثناء زيارته التاريخية الأولى لمدينة القدس بعد افتتاحها والاستيلاء عليها.. هذا العهد الذى استمد بنوده مما جاء فى كتاب الله من آيات بينات أوصت المسلمين بأهل الكتاب وذلك وفق ما أنزله رب العالمين في قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وفى قوله تعالى أيضاً: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(العنكبوت: ٤٦).

ويذكر لنا التاريخ فى هذا السياق أيضاً ذلك العهد أو تلك المعاهدة التى وقعها خالد بن الوليد بشأن أهل الكتاب والتى جاء فيها : «أن لا تهدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى أن يخرجوا الصلبان فى أيام عيدهم». (١)

وهذا مثال واحد من بين مئات الأمثلة التى ضربت لنا عبر التاريخ فيما يخص موقف المسلمين والإسلام من أماكن عبادة أهل الديانات الأخرى.

ويؤكد الكثير من المؤرخين حتى النصارى منهم على أن عهود الصلح التى أبرمت بين المسلمين الفاتحين آنذاك وبين أهل تلك البلاد قد نصت على تخصيص أماكن لدور العبادة الخاصة بهم مثل الكنائس والبيع أو بيوت النار إلى جانب ما نصت عليه بألا يتم هدم بيعهم أو كنائسهم داخل المدينة، ولا خارجها . رغم أنه كانت هناك بعض العهود القديمة التى نصت على ألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة .

ويرى بعض المؤرخين أن هذا الشرط إنما شمل المدن الجديدة التى كان ينشئها العرب الفاتحين، مع بقاء حق أهل الكتاب فى أن يبنوا ما تهدم من بيعهم وكنائسهم القديمة.

ويضرب لنا المؤرخون بعض الأمثلة الحيوية على ذلك مثل قولهم بأنه عندما أراد الخليفة عمر بن الخطاب إنزال العرب فى الموصل فى عام ٢٠هـ (٦٤١)م وكان بها

(١) الإسلام فى أسيا الصغرى - حسن محمود.

كنائس ومنازل للنصارى وبيع ومحلة لليهود أمر عامله على العراق ابن فرقد السلمى بأن يقيم منازل العرب الجديدة فى أماكن أخرى.[1]

** الباب .. وأصحاب السبت:

قد يعتقد البعض أن المقصود بالباب فى هذه الآية والتى سوف نذكرها حالا لايعنى مكاناً مقدساً يتطلب اختياره هنا كمكان من أماكن العبادة، ولكن هذا الاعتقاد من المؤكد أنه غير سليم بالمرة.. لأنه ارتبط بالسجود.. وهو أمر صادر من رب العزة سبحانه وتعالى.. ولعل ذلك يتجلى فيما جاء بالآية المذكورة والمعنية بذلك والموجودة فى سورة البقرة وفى قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ (الآية: ٥٨).

ونحن نشير إلى ذلك لأن بعض المفسرين تصوروا أن الباب فى هذه الآية إنما يعنى باب مدينة أريحا التى دخلها بنو إسرائيل من بعد فترة التيه التى قضوها فى صحراء سيناء لمدة أربعين عاماً.

وتصوروا كذلك فيما ذكروه أن الله تعالى قد أمر بنى إسرائيل بأن يسجدوا خارج باب تلك المدينة أو هذه القرية التى ساعدهم فى دخولها رغم ما تصوروه من مشكلات وصعاب، وهم قد رفضوا من قبل دخولها، فكان جزاؤهم أن تاهوا فى سيناء كل هذه الفترة الطويلة من الزمن.

ومن أصحاب هذا الرأى الإمام ابن كثير الذى قال فى تفسيره لهذه الآية : أن بنى إسرائيل لما خرجوا من التيه بعد أربعين عاماً مع يوشع بن نون وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا بأن يدخلوا باب البلد سجداً شكراً لله تعالى على ما أنعم عليهم به من الفتح والنصر وانقاذهم من التيه والضلال.[2]

ويضيف: أنه لما امتنع بنو إسرائيل عن تنفيذ أوامر الله فى السجود أنزل الله عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم وظلمهم.

---

(١) معاملة غير المسلمين فى الدول الإسلامية - د. نريمان عبد الكريم أحمد.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٩٨ .

ورأينا فى هذه القصة أن المقصود بالباب هنا هو باب أحد أماكن العبادة والذى أمرهم الله تعالى ببنائه فور دخولهم هذه الأرض المقدسة، ذلك لأن بنى إسرائيل ظلوا بعيدين عن ربهم طوال هذه الفترة وهم يعيشون فى عذاب الغربة داخل أرض سيناء.. وقد نسوا أو تناسوا التوراة حتى جاءهم أحد قادتهم الذى تولى شئونهم بعد وفاة نبيهم موسى عليه السلام وهو يوشع بن نون الذى زحف بهم ناحية قرية أريحا.. وكان من المفترض أن يبنى هؤلاء القوم مكاناً لعبادة الله رب العالمين يسجدون فيه شكراً له على هذه النعم، ولكنهم أيضاً لم يفعلوا ذلك ولم يدخلوا من باب هذا المعبد لذكر الله وشكره على نعمه.

من هنا نعتبرنا نحن أن الباب المذكور فى هذه الآية إنما هو إشارة لأحد أماكن العبادة المذكورة فى القرآن الكريم، وليس باب القرية.. ذلك لأن الإسلام هو دين الله الوحيد الذى جعل الله تعالى لأتباعه وكما قال رسولنا الكريم كل الأرض مساجد لنا وبالتالى فهم وحدهم المصرح لهم بالسجود إلى الله فى أى مكان فى الأرض سواء على سبيل الشكر أو العبادة.

وهناك من المفسرين الذين توسعوا فى حديثهم عن الباب وما ارتبط به فى كتاب الله، ومن هؤلاء الإمام الدامغانى فى كتابه الوجوه والنظائر.. والذى تحدث فيه تفصيلاً عن كل ما ارتبط بالباب كلفظ جاء ذكره فى كتاب الله، ومما قاله فى هذا الشأن: أن كلمة باب ذكرت فى القرآن الكريم على سبعة أوجه، وهى المنزل ،والسكة والباب بعينه، والدرب، والمدخل والمخرج، ومستفتح الأمر والطريق.

وجاء لفظ الباب فى الآية الكريمة: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فى الوجه الثالث والمعنى به الباب بعينه، والإمام الدامغانى ورغم ذلك لم يبين لنا فيما ذكره المقصد الحقيقى بالباب، وهل هو باب القرية أم باب المعبد أو المسجد الذى يجب أن يسجد فيه بنو إسرائيل لله تعالى، شكراً على إتمامه رحلة دخولهم أرض فلسطين، ولذلك يظل ما توصلنا إليه فى هذا السياق هو الأكثر توفيقاً.. لأن الله تعالى قد أمر بنى

إسرائيل فور دخولهم هذه الأرض المقدسة بأن يسارعوا إلى بناء معبد لهم على أن يدخلوه سجداً لعبادة رب العالمين، ولشكره على نعمه الكثيرة عليهم إذ أخرجهم من الصحراء والخوف إلى الحضر والطمأنينة.

وربما يقترب مما ذهبنا إليه باعتبار الباب أحد أماكن العبادة المذكورة فى كتاب الله. ما ذهب إليه أيضاً ابن جرير الطبرى فى تفسيره للآية ذاتها.. حيث قال : أما الباب الذى أمروا له أن يدخلوه فإنه قيل: هو باب الحطة من مدينة بيت المقدس.

** صلوات.. أماكن عبادة اليهود:

ذكر معجم ألفاظ القرآن الكريم فى جزئه الأول أن كلمة صلوات إنما تعنى أماكن الصلاة عند اليهود.. وجاء ذكر هذه الكلمة كمكان عبادة مشهور فى كتاب الله فى الآية (٤٠) من سورة الحج، وفى قوله تعالى ﴿بِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ﴾ . وربما يقترب هذا المعنى اللغوى مما سبق وذكرناه عن كلمة الباب التى أمر الله تعالى عباده من بنى إسرائيل أن يسجدوا داخلين هذا الباب، وهو باب مكان عبادتهم لله تعالى.

ولقد ذكرها كتاب الوجوه والنظائر .. فى حديثه عن تفسير كلمة الصلاة فقال مؤلفه أن معناها بيوت الصلاة، وهى خاصة ببنى إسرائيل.. لأن الله تعالى قد ذكر بعدها أماكن عبادة المسلمين فى قوله تعالى وفى نفس الآية ﴿وَمَسَاجِدُ﴾، وهذا يعنى فى المقام الأول أن الله تعالى قد أمر كل عباده من أتباع وأصحاب كل الملل والنحل والديانات على اختلافها بأن يسجدوا لله تعالى سجود يقين واعتبار وإيمان بوحدانيته وقوته وكرمه بصرف النظر عن المكان أو تسميته والذى يختلف حتماً من لغة إلى أخرى ما بين كنائس وبيع وصلوات وصوامع ومساجد.

ولكن وللأسف فقد تغير كل شىء فى عالمنا الحديث حتى المسميات والهدف منها حتى أصبحنا نسمع كلمات ارتبطت بالدين اليهودى فيما يخص العبادات بما أسموه بالمعبد اليهودى!! وفيه طقوس لا تمت بصلة لا للسجود وللركوع ولا لعبادة الله من

أصله، وبقى دين الإسلام قويًا فيما نادى به وتمسك أصحابه بأماكن عبادتهم التى أمرهم بها رب العالمين، حيث مساجدهم التى هى بيوت الله فى الأرض.

ولسوف نتعرف كذلك فى سياق الحديث عن أماكن العبادة المذكورة فى كتاب الله على أماكن أخرى .. جاء ذكرها فى كتاب الله .. وهى تخص أهل الديانات من غير دين الإسلام ألا وهى الصوامع.

** الصوامع.. والرهبنة المرفوضة:

لقد لاحظنا أن من أكثر أماكن العبادة التى ارتبطت بتاريخ بنى إسرائيل وكذلك تاريخ بعض طوائف النصارى. هو ما نسميه بالصوامع، وهى كلمة جاء ذكرها كذلك ضمن ما ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز عن أماكن العبادة لدى أصحاب كل الديانات، وذلك فى سورة الحج الآية (٤٠)، ولكن كتاب التفسير المختصر لابن جرير الطبرى ذكر فى تفسيره لهذه الآية والتى جاء فيها ذكر صوامع أن المقصود بها هنا: صوامع الرهبان من دون أن يحدد لنا لأى دين كانوا ينتمون.

وفى السيرة النبوية الشريفة جاء ذكر رهبان النصارى وبنى إسرائيل كثيراً خاصة من الذين كانوا يقيمون على أطراف بلاد الشام.. وكانت قوافل العرب التجارية التى كان يصاحبهم فيها رسول الله ﷺ وهو فى صباه أو فى شبابه وقبل مبعثه تقابل هؤلاء الرهبان الذين اتخذوا من هذه الصوامع أماكن عبادة لهم.

وكلنا يعرف قصة كل من الراهب بحيرا، والراهب ورقة بن نوفل .. ويبدو أن ما سمى بالصوامع كمكان خاص لعبادة الله.. قد انتقل من اليهودية إلى المسيحية مع انتقال صفة الرهبنة إلى رجال الدين لديهم، وهناك من يقول إن الرهبنة ولجوء رجال الدين فى الإقامة فى هذه الصوامع خاصة داخل الصحارى أو الأماكن البعيدة عن العمران.. إنما نشأ بسبب ما كان يلاقيه هؤلاء من صنوف الاضطهاد.. من جانب حاكم بلادهم على اختلاف مشاربهم.

وفى تعريفهم للصومعة قال علماء اللغة: إنها تعنى كل بناء متصمع الرأس أى متلاصقة، والأصمع اللاصقة أذنه برأسه، ويقول الدكتور محمد إبراهيم الفيومى فى

كتابه الشهير «تاريخ الفكر الدينى الجاهلى» إن لفظى الصوامع والبيع هما من الألفاظ التى استعملها الجاهليون للدلالة على مواضع العبادة عند النصارى، بل وذهب بعضهم إلى القول بأن البيعة من الألفاظ المعربة وقد أُخذت من السريانية.

وكما نفهم من سياق حديث المفسرين لكلمة صوامع كمكان للعبادة فإنها ارتبطت وطوال مسار التاريخ بالرهبان والرهبنة - بدليل ما جاء فى كتب السيرة النبوية عن كل من الراهب بحيرا والراهب نسطور وورقة بن نوفل ، وكان كل منهم يعيش داخل صومعة على أطراف الحضر.. وإلى الداخل من الصحراء..

ويبدو كذلك أن كلمة صومعة قد تغيرت كمفهوم لفظى فى العصر الحديث إلى لفظ دير.. وجمعها أديرة، لأن هذه الأماكن قد ارتبطت كذلك بإقامة هؤلاء الرهبان من الذين اتجهوا إلى الغلو فى دينهم . الأمر الذى جعل الإسلام ومن خلال كتاب الله، وسنة نبيه الكريم أن ينهى عن تلك الرهبنة، وهناك العديد من آيات الله الكريمة فى القرآن الكريم وكذلك من الأحاديث النبوية التى أشارت إلى ذلك كله.

** مساجد .. للمسلمين فقط:

كنا قد أشرنا من قبل إلى أماكن العبادة لأصحاب الديانات غير الإسلامية وهى التى أشار إليها رب العالمين فى كتابه العزيز ما بين بيع وصوامع وصلوات . ونتوقف عند النوع الرابع من أنواع هذه الأماكن لأصحاب الديانات. وقد خص الله تعالى عباده من أتباع دين الإسلام بمكان خاص بهم. وهو المسجد أو المساجد.. هذا المكان جاء فى هذه الآية بشكل عمومى، ثم جاء بشكل متخصص فى آيات أخرى وهو ما سوف نشير إليه أيضاً من خلال السطور القادمة.

ومما يدل على صحة ما ذهبنا إليه من تخصيص رب العالمين للفظ المسجد أو المساجد لأتباع دين الإسلام وحدهم دون غيرهم. أن الله تعالى قد ذكر المساجد كلفظ عام يدل على مكان عبادة المسلمين فى ٤ سور كريمات هى الكهف فى الآية (٢١) والبقرة فى الآيتين (١١٤ و١٨٧) وفى سورة التوبة فى الآيتين (١٧و١٨). وكذلك فى سورة الجن الآية (١٨).

أما ما جاء فى سورة الحج فإنما فيه إشارة للمساجد ضمن أماكن عبادة أخرى لأتباع ديانات أخرى.

ليس ذلك فقط .. بل إن الله تعالى وتكريماً منه لأتباع دين الإسلام فقد ذكر المسجد مفرداً أو مقروناً بأماكن بعينها فى سورة البقرة الآيات (١٤٤ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٩١ - ١٩٦ - ٢١٧)، ثم سورة المائدة الآية (٢) والأعراف (٢٩، ٣١)، والأنفال الآية (٣٤) والتوبة الآية (٧،١٩،٢٨،١٠٨)، والإسراء الآيتين (١، ٧) ثم الحج الآية(٢٥) والفتح الآيتين (٢٥ ، ٢٧) والتوبة الآية (١٠٧).

إضافة إلى ذلك فقد ذكر لنا القرآن الكريم آيات وسور كثيرة أخرى عن السجود والساجدين، وهم أولئك الذين يخلصون عبادتهم لله تعالى، وقد ظهر أثر ذلك على وجوههم مما يدل على تفانيهم فى السجود لله والخضوع لعظمته.

والمساجد هنا فى معناها العام تعنى أماكن السجود.. أى المكان الذى يختاره الإنسان كى يسجد فيه بهامته خاشعاً لله رب العالمين. ولقد خصص الله تعالى هذه الأماكن للمسلمين فيما نسميه بالمساجد أو الجوامع.

بل وأكثر من ذلك فقد رخص الله للمسلمين وفق قول رسولنا الكريم كل الأرض كى تكون مواضع للسجود لأتباع دين الإسلام دون سواهم من أتباع الديانات الأخرى، ولقد بين رسولنا الكريم ذلك فى قوله الشريف «وجعلت لى الأرض مسجداً».

وهذا معناه أن هذه خصوصية تفرد بها رسولنا الكريم عن غيره من رسل الله.. وقد انتقلت تلك الخصوصية إلى أتباعه عليه الصلاة والسلام.. إذ يحق للمسلمين بأن يسجدوا لله فى أى مكان فى الأرض بشرط أن يكون طاهراً.

ولقد ذكرنا من قبل أن الله تعالى قد عمم الحديث عن المساجد، فى آيات وسور كثيرة ثم أعقبه بتخصيص تلك المساجد للمسلمين، بدليل إشارته تعالى فى كتابه العزيز.. وفى أكثر من آية وسورة إلى مساجد بعينها فى الأرض والتى من أشهرها كل من المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

ليس ذلك فقط، بل أن الله تعالى قد خص أتباع دين الإسلام بطقوس معينة ارتبطت بالسجود والركوع وهو ما نسميه الصلاة بأركانها.

هذه الصلاة هى أول الأعمال التى سوف يحاسب عليها العبد حين الوقوف بين يدى الله يوم الحساب.. فإذا ما صلحت هذه الصلاة قبولاً من رب العالمين لأدائها وفق ما أخبرنا به رسولنا الكريم وتعلمناه عنها منه، فقد صلحت كل أعمال العبد، وبالتالى فقد فاز بالجنة.

ومن يقرأ الكتب السماوية الأخرى حتى من بعد تحريفها أو من قبل ذلك لن يجد حديثا عظيماً ومهماً عن الصلاة والمساجد والسجود إلا فى شريعة الإسلام.

** الصفا والمروة من شعائر الله:

حين يأتى الحديث المفصل عن كل من الصفا والمروة كأماكن عبادة لله تعالى .. وفق ما جاء فى كتاب الله العزيز، لا بد لنا وأن نتوقف كثيراً ومعتبرين أمام قصة سيدنا، إبراهيم الخليل عليه السلام وزوجته السيدة هاجر وابنه إسماعيل عليهما السلام. وذلك لأن الصفا والمروة وكما نعرف هما جبلين فى مكة المكرمة، لم يكن لهما اسم أو وجود أو اعتبار أو قيمة من قبل هجرة رسول الله إبراهيم الخليل وزوجته هاجر إلى تلك البقعة المباركة من أرض الله.

لقد كان كل من الصفا والمروة من قبل قدوم هذه الأسرة الشريفة، مجرد حجارة جبلية مثلها فى ذلك مثل غيرها مما كان يحيط بالبلد الأمين، ولكن نظراً لارتباطهما بقصة هاجر عليها السلام وابنها إسماعيل بعد ما تركهما إبراهيم عليه السلام بدون زاد أو ماء، فقد إزدادت قيمتهما بل وتحولا إلى أحد شعائر دين الله ومكانين للعبادة والدعاء.

ومن قبل الخوض فى بعض ما قيل بشأن الصفا والمروة وارتباطهما بأسرة هذا النبى الكريم. نسوق ما ارتبط بهما من آيات فى كتاب الله تعالى.. حيث قال ربنا تعالى فى سورة البقرة وفى الآية (١٥٨): ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

وما نود أن نشير إليه كذلك فى سياق الحديث عن الصفا والمروة وقصة إبراهيم الخليل وأسرته الصغيرة المكونة من هاجر وإسماعيل أن هذين الجبلين ارتبطا كذلك بالبئر المبارك الذى تفجرت منه المياه تحت قدمى إسماعيل عليه السلام ألا وهو بئر زمزم.

ويقول المؤرخون فى تفاصيل كثيرة نذكر بعضها عن قصة هذين الجبلين وما ارتبط بهما من قصص أخرى: أن إبراهيم عليه السلام جاء بزوجته هاجر المصرية وهى تحمل ابنها الرضيع إسماعيل، ووضعهما فى مكان بالقرب من بئر زمزم الحالى.. وترك لها جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم اتجه إبراهيم عائداً إلى فلسطين من حيث جاء، فنادته أم إسماعيل متسائلة أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى، فلم يلتفت إليها إبراهيم، فسألته: آلله أمرك بهذا؟!

فأجاب :نعم.

قالت: إذن لن يضيعنا.

وبعد أيام نفد الطعام .. والماء .. وجف تبعا لذلك لبن أم إسماعيل مما جعل إسماعيل يبكى، عندئذ أخذت أمه تتردد بين الصفا والمروة لعلها تجد من يساعدها أو يمدها بالطعام والشراب، وكان ترددها بين الصفا والمروة سبع مرات.، ولذلك يسعى الحجاج سبع مرات كذلك، ولما أتمت السابعة ظهر لها ملك فى صورة طائر نقر الأرض فأنبثق منها الماء، وفى رواية أخرى أن الماء قد انبثق عند رجل إسماعيل التى كان يدق بها الأرض وهو يبكى. (١)

وفى شعائر الحج يسمى الصفا والمروة باسم المسعى.. و هناك من الكتب التاريخية وكتب العمارة التى تناولت ذلك المسعى بالتفاصيل المطلوبة والتى سوف ننقل منها بعض الذى يناسب هذه المساحة الصغيرة.

ففى الكتاب المصور «الكعبة المعظمة - الحرمان الشريفان - عمارة وتاريخاً».. يقول مؤلفه عبد الله محمد أمين كردى : إن جبل الصفا يقع أسفل جبل أبى قبيس مما

(١) مدن إسلامية مقدسة - د. أحمد شلبي.

يقابل ركن الحجر الأسود من الكعبة ومنه يبدأ السعى.. أما المروة فهو واقع جهة المسعى وإليها ينتهى السعى، وجبلها يقع فى أصل جبل قعيقان.

ويضيف: إن السعى بين الصفا والمروة من الأمور التعبدية التى أوجبها رب العالمين فى محله المخصوص ولا يجوز العدول عنه. لذلك فهو عمل تعبدى ولا نقاش فى علته.

ويتناول المؤلف كذلك مراحل تطور هذا المسعى منذ عهد رسولنا الكريم ﷺ وإلى اليوم. فقد كان على عهد رسولنا الكريم عريضا.. ثم بنيت بعض الدور بعد ذلك فى بعض عرض المسعى القديم وقد هدمها المهدى وأدخل بعضها فى المسجد الحرام وترك البعض الآخر للسعى .

كما كان فى بداية الأمر فوق الصفا والمروة درج بلغ ١٢ درجة على الصفا و١٥ درجة على المروة، وقد شهد هذا المسعى تطويراً عظيماً فى عصر الأسرة السعودية حتى صار ما آل إليه حالياً ويشاهده كل الحجيج الذين من الواجب عليهم المرور عليه باعتباره من أركان الحج . وكما نعرف فإن الصفا والمروة يدخل الآن فى إطار المسجد الحرام ومكوناته الأخرى مثل بئر زمزم ومقام إبراهيم.

** جبل عرفات .. تمام الحج:

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز وفى سورة البقرة: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ (الآية: ١٩٨) ، ولقد جعل رسولنا الكريم الوقوف على جبل عرفات من تمام الحج - وبدون هذا الوقوف لا يكون الحج متمماً. وهناك من الروايات التاريخية التى تناولت بالتفصيل الحديث عن جبل عرفات كمكان نعبد فيه الله رب العالمين وكذلك تاريخ ارتباطه بأحداث دينية بعينها.

هذه الروايات جعلت من هذا الجبل من أشهر الأماكن المقدسة التى يجب أن يزورها ويرتبط بها المسلمون فى كل بقاع الأرض .

ولقد سبقهم إلى ذلك العشرات من الرسل ومن الملائكة الكرام الذين شرفوا هذا المكان الطاهر الأمين، ومن أوائل هؤلاء الأنبياء والرسل سيدنا آدم عليه السلام.. الذى يقال أنه وبوحى من رب العالمين حين نزل من الجنة إلى الأرض هو وزوجته

فافترقا.. وظل يبحث عنها إلى أن عثر عليها عند جبل عرفات! كما يقال بالنسبة لهذا النبى الكريم أن اسم جبل عرفات قد اشتق من كلمة عرف أو عرفت التى جاءت على لسان آدم عليه السلام.. حين علمته الملائكة شعائر الحج فوق هذا الجبل عندئذ قال: عرفت أو عرف.

وبخلاف ذلك فهناك من المؤرخين الذين يؤكدون بالفعل أن آدم عليه السلام قد حج إلى هذا الجبل بعد بناء الكعبة على غرار البيت المعمور وقد رأى الملائكة وهم يطوفون حوله فى السماء السابعة ومن قبل هبوطه إلى الأرض.

وينقل لنا شيخ الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود الأقوال التى تتردد بشأن هذه التسمية فيقول عن ذلك : يوم عرفة هو اليوم التاسع من ذى الحجة.. وعرفات هو المكان المرتفع المنبسط على بعد ١٢ ميلاً من مكة، وهو موقف الحجاج فى ذلك اليوم، وهو اسم فى لفظ جمع، وسمى بذلك لأن آدم وحواء تعارفا به، أو لقول جبريل لإبراهيم عليه السلام لما علمه المناسك: أعرفت ، فقال: عرفت، أو لأنه مقدس معظمه أو طيبا حيث تؤكد كلمة عرفت أن معناها طيب، إذا العرف هو الطيب ومن أخص ما يروى فى سبب هذه التسمية أنه لتعرف العباد وتقربهم إلى الله بالعبادات والأدعية.(١)

كما يؤكد إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى.. ما يقصد بعرفة أو عرفات.. وأسباب هذه التسمية فنراه يقول عن ذلك: كلمة عرفة أصبحت الآن علماً.. ولكن لسبب تسميتها أكثر من قصة. فقد قيل إن آدم وحواء حينما هبطا من الجنة امتثالاً لأمر الله هبط آدم فى مكان وحواء فى مكان آخر، وظل كلاهما يبحث عن الآخر حتى تلاقيا فى هذا المكان فسمى عرفه. والحديث عن آدم وحواء ولقائهما فى عرفة يقتضى إيضاحاً.. فلك أن تتصور حال آدم ، وقد هبط فى عالم واسع غريب بمفرده.. ينظر حوله فلا يجد بشراً مثله، فإذا رأى بشراً فيقابله باشتياق شديد، ومن هنا فرق الله بين آدم وحواء. ليبحث كل منهما عن الآخر بحب واشتياق، فإذا التقيا تمسك كل منهما بالآخر .(٢)

(١) الحج إلى بيت الله الحرام - د. عبد الحليم محمود.

(٢) الحج المبرور - محمد متولى الشعراوى.

وفى قول آخر للشعراوى: أن آدم قالت له الملائكة بعد أن نزل إلى الأرض فى هذا المكان اعترف بذنبك وتب إلى ربك.. فقال كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾سورة الأعراف الآية (٢٣).ويكون المعنى أنه عرف ذنبه وعرف كيف يتوب.

كما يرتبط هذا المكان أيضاً بنبى الله إبراهيم عليه السلام.. وقد عرفه الله مكان عرفه.. وذلك حين رأى إبراهيم عليه السلام فى الرؤيا أنه يذبح ابنه إسماعيل، وهى مسألة شاقة على النفس لأنه ابنه الوحيد ولأنه سيذبحه بيديه، عندئذ جلس إبراهيم فى هذا المكان يدبر فكرة ويتروى.. ولذلك سمى يوم عرفة أيضًا بيوم التروية.. وعندما تأكد بأن الرؤيا حق، وعرف أنه لا بد أن يذبح ابنه سمى المكان الذى عرف فيه حقيقة الرؤيا باسم «عرفة».[١]

** الكعبة.. أول بيت وضع للناس:

المتدبر لكتاب الله.. والباحث المدقق فى آياته الكريمة وسوره الشريفة، يكتشف أن الكعبة كمكان عبادة مشهور فى القرآن الكريم.. قد جاء ذكره فى موضعين، فى سورة المائدة فى الآية (٩٥) فى قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾. وفى الآية (٩٧) فى قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾.

وهناك المئات من الكتب والمراجع التى تناولت هذا المكان الطاهر بالدراسة والتحليل وكلها قد اجتمعت على قول واحد .. وهو أن هذا المكان الأمين هو أول بيت عبادة أمر رب العالمين ملائكته ببنائه فى الأرض على شاكلة البيت المعمور فى السماء السابعة. وذلك حتى يتثنى لعباد الله فى الأرض أن يطوفوا حوله مثلما تطوف الملائكة حول البيت المعمور.

ولسوف نحاول اقتطاف بعض الذى قيل عن هذا المكان العظيم تاريخيًا ومعماريًا ثم أهميته بالنسبة للعرب سواء من قبل الإسلام أو من بعد ظهوره.

(١) المصدر السابق.

وما نود أن ننوه عنه قبيل الإقدام على هذه الخطوة أن هذا البيت العتيق قد ارتبط بالملائكة وبكل أنبياء الله الذين بعثهم الله لهداية الناس منذ آدم وحتى رسولنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام.

وأكثر الأنبياء ارتباطاً بهذا المكان العظيم كل من إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام، ولكل من هؤلاء الثلاثة الكرام ذكريات طيبة من أجل إعمار هذا البيت المعمور.. وإضافة إلى هؤلاء كان هناك من عباد الله الصالحين الذين اهتموا هم أيضاً بهذا البيت وعمروه صيانة له عبر الأزمنة والدهور، بل وجاهدوا من أجل إكرام ضيوفه من الذين كانوا يزورونه للطواف حوله حتى من قبل ظهور الإسلام. بل وامتد هذا الاهتمام إلى ما بعد ظهور الإسلام وإستمر إلى يومنا هذا.

ومما ذكره المؤرخون عن تاريخ هذا البيت وتوقيت بنائه.. خاصة فى كتب التاريخ أن البيت الحرام (الكعبة) إنما بنى مرات كثيرة وصلت إلى أحدى عشرة مرة، كما ذكرت هذه الكتب أيضاً أسماء الذين بنوه عبر التاريخ، إلا أن بعض ما جاء فى هذه الكتب من الروايات اعتبره البعض ظنى الثبوت وآخرين اعتبروه يقينى الثبوت. ومجمل ما ذكروه بشأن بناة الكعبة المشرفة أنهم بالرتيب: الملائكة عليهم السلام بأمر من الله.. ثم آدم عليه السلام، الذى قيل إنه شارك الملائكة فى البناء فكان بناء واحداً، وكذلك بناه شيث بن آدم عليهما السلام وبناه إبراهيم عليه السلام ثم بناه العمالقة وقبائل جرهم وقصى الجد الرابع للنبى الكريم.

كذلك أعادت قريش بناء هذا البيت وشارك فى هذا البناء رسولنا الكريم ﷺ من قبل بعثته الشريفة بخمس سنوات، وشهدت هذه المشاركة واقعة التحكيم بين بطون قريش حلاً للنزاع حول من يضع الحجر الأسود فى مكانه بعد بنائه، ثم بناه عبد الله ابن الزبير عام ٦٥ هـ بعد حصار الحصين بن نمير والذى جاء بجيشه من قبل يزيد بن معاوية لقتال ابن الزبير فضرب الكعبة بالمنجنيق فوهنت جدرانها ثم احترقت، لهذا كان من الضرورى هدمها وإعادة بنائها بعد انصراف الحصين وجيشه.

كما بنى الكعبة الحجاج بن يوسف الثقفى فى عام ٧٤ هـ.. وبناها السلطان مراد خان العثمانى عام ١٠٤٠هـ بعد أن تهدمت بسبب الأمطار الغزيرة والسيول التى غمرت مكة ليلة الخميس وعصره فى عشرين من شعبان عام ١٠٣٩ هـ.

ثم توالت بعد ذلك محاولات ترميم هذا البناء خاصة فى فترة حكم الأسرة السعودية منذ مؤسسها الأول الملك عبد العزيز آل سعود وإلى يومنا هذا.

هذا الترميم الذى جاء ضمن جهود هذه الأسرة من أجل الحفاظ على الحرمين الشريفين وتجديدهما ورعايتهما دوماً حتى صارا على ما هما عليه الآن من روعة وجمال.

وهناك فريق آخر من هؤلاء المؤرخين الذين تحدثوا عن وصف الكعبة من الداخل ومن الخارج ومكوناتها المعمارية.. وقد تفاوتت آراء هؤلاء المؤرخين خاصة فيما ذكروه عن أبعاد الكعبة ومساحتها وهو اختلاف طبيعى نتج عن اختلاف الأذرع ما بين ذراع اليد وذراع الحديد.

وبشكل عام فإن الكعبة تحتوى على أربعة أركان هى الركن الشامى واليمانى والأسود والغربى.

ومن أشهر ما تضمه الكعبة من معالم هو الحجر الأسود أو الأسعد، وفى الحديث عن أصله كلام كثير تفوه به المؤرخون واختلفوا، وكذلك باب الكعبة وحجر إسماعيل. كما تحدثوا بالتفصيل عن بناء إبراهيم عليه السلام للبيت الحرام بمساعدة ابنه إسماعيل. وهو ما سوف نتناوله فى موضع آخر قادم إن شاء الله.

** مقام إبراهيم.. ومن دخله فهو آمن:

من عظمة الله تعالى وكرمه على عباده الصالحين أن ذكرهم بالخير وأثنى عليهم وأشار فى كتابه العزيز إلى بعض أعمالهم من أجل أن يكونوا للعالمين عبرة وعظة وفرصة لنقلدهم لأنهم خير، وما قاموا به هو الخير نفسه.

ومن هؤلاء الذين كرمهم رب العالمين بذكر مآثرهم وأعمالهم الطيبة المتعددة.. نبى الله إبراهيم عليه السلام. الذى ارتبطت بحياته أماكن طاهرة كثيرة، وقد خص الله تعالى أرض مكة بأماكن ارتبطت بالفعل بهذا النبى الكريم، وقد ذكرنا منها من قبل: الكعبة المشرفة كأول بيت عبادة وضعه الله للناس وبناه إبراهيم عليه السلام بمشاركة ابنه إسماعيل اللذين أقاما القواعد من بعد أن طمستها الرمال على مر العصور، كما

ارتبط بهذا النبى وبهذا البيت الحرام كذلك مقام إبراهيم وهو ذلك الحجر الذى وقف فوقه هذا النبى الكريم من أجل إكمال بناء الكعبة، وقد غاصت قدماه الشريفتان داخل هذا الحجر، والذى هو موجود حاليا داخل تجويف من الزجاج، ويقف شامخاً أمام الكعبة وإلى يوم القيامة. بل وقد جعل الله تعالى دخول هذا المقام أو الاقتراب منه بمثابة الشعور بالأمان.

إن قصة هذا الحجر الذى أتى به إسماعيل عليه السلام كى يقف عليه أبوه ليكمل البناء.. قد كرمه الله وكرم صاحبه بأن أبقاه خير دليل على وجود هذا النبى بيننا ليس فوق صفحات التاريخ فقط، بل وأمام أعيننا فى الواقع أيضاً.

وبطبيعة الحال إذا ما ذكر مقام إبراهيم والحجر الذى وقف عليه هذا النبى الكريم لابد لنا وأن نذكر كذلك ظروف بناءه الكعبة المشرفة.

ومما قيل فى هذا السياق: أن الله تعالى قد أمر نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام ببناء هذا البيت بعد أن بوأله مكانه وحدده له، فنفذ أمر الله بكل شوق وعشق، وساعده فى هذه المهمة العظيمة ابنه إسماعيل عليهما السلام.

ويقول المؤرخون إن إبراهيم الخليل عليه السلام عندما بنى الكعبة جعل ارتفاعها تسعة أذرع ولم يجعل لها سقفاً ولا باباً. كما جعل بداخلها حفرة كى تكون بمثابة خزانة الكعبة ومستودعاً لمقيناتها. كما جعل إبراهيم عليه السلام للكعبة ركنين فقط هما ركن الحجر الأسود والركن اليمانى. (١)

أما بالنسبة لمقام إبراهيم فهو من لواحق الكعبة مثل حجر إسماعيل تماماً، ويقال إن هذا النبىّ الكريم قد استخدم هذا الحَجر أيضاً كمكان وقف فوقه وهو يؤذن فى الناس بالحج تلبية لما أمره به الله تعالى، كما أنه محل مغفرة لمن صلى خلفه ونزل فيه أمر إلهياً باتخاذه مصلى.

ولقد جاء ذكر هذا المقام كمكان عبادة فى سورة آل عمران فى الآية (٩٧) وفى قوله تعالى: ﴿فيه آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.

(١) الكعبة المعظمة - الحرمان الشريفان - محمد أمين كردى.

ويعتبر هذا المقام الشريف من الآيات البينات للبيت الحرام.. والسبب الرئيسى فى ذكر القرآن للمقام من دون البينات الأخرى وعلى حد قول إمام الدعاة محمد متولى الشعراوى. أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى هذا المقام والذى فيه تعبير عن عشق إبراهيم عليه السلام لمنهج الله وتكليفه.. الأمر الذى جعله يأتى بهذا الحجر ليزيد ارتفاع البيت .

** المشعر الحرام .. لإتمام الحج:

سوف نلاحظ حتى من سياق الآية الكريمة الآتية أن هناك تلازماً كبيراً بين عرفة كمكان عبادة ذكره رب العالمين فى كتابه العزيز وبين المشعر الحرام أيضًا كمكان عبادة، ولعل ذلك يتجلى فى قوله تعالى فى سورة البقرة فى الآية (١٩٨): ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾.

ذلك لأن المشعر الحرام وفق مناسك الحج هو ذلك المكان الذى يذهب إليه الحجيج بعد الإفاضة من عرفات، وفقاً لما علمنا رسولنا الكريم ﷺ. إذ تستوجب مناسك الحج هذه على المسلم وبعد الخروج من عرفات أن يأتى إلى المشعر الحرام وهو جبل معروف بالمزدلفة، ثم ينطلق من المشعر الحرام إلى جمرة العقبة ويعقب ذلك الإفاضة إلى البيت الحرام للطواف حوله، ثم العودة إلى منى.

ويوضح لنا إمام الدعاة الشيخ الشعراوى معنى كلمة إفاضة وهى التى ارتبطت بكل من عرفات والمشعر الحرام، فيقول متسائلاً: ما معنى الإفاضة؟!. أنه حين نملأ كوباً عن آخره يفيض الزائد على جانبيه، إذ فالفائض معناه شىء افترق عن الموجود بالزيادة. والله سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى تحدثت عن الإفاضة قد ضمنها حكماً مسبقاً بأن عرفات سوف يمتلئ عند الخروج منه امتلاء تراه فائضاً عن العدد المحدد، وعلى ذلك فالحاج حين يخرج من عرفات ويصل إلى المشعر الحرام يجب عليه أن يكثر من الثناء على الله لتفضله عليه بتيسير هذه الرحلة المباركة.

ومن بعد الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة أو المشعر الحرام، هناك إفاضة ثانية من المزدلفة إلى منى حيث يبدأ الحجاج فى جمع الحصى كى يرجمون بها الشيطان ويصلى الحجاج المغرب والعشاء جمع تأخير.

ويؤكد شيخ الدعاة محمد متولى الشعراوى أنه حين يتجه الحاج من المشعر الحرام إلى منى لرجم الشيطان يجب عليه أن ينتبه لأمر مهم وهو أن يتذكر قصة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وهى قصة الابتلاء المبين بذبح ابنه تلك التى رآها فى المقام.

** المسجد الحرام.. ليس هو الكعبة:

لا بد وأن يكون ماثل للذهن أمام أعيننا وداخل عقولنا أن المسجد الحرام ليس هو الكعبة. ذلك لأن المسجد أشمل من بناء الكعبة بما يضمه من أماكن عبادة أخرى مثل مقام إبراهيم وبئر زمزم وحجر إسماعيل والصفا والمروة.

ولقد فطن إلى هذا الفارق الكبير الكثير من العلماء ومن المفسرين، ومن هؤلاء إمام الدعاة الشيخ الشعراوى الذى قال: يجب أن يعرف الناس أن الكعبة المشرفة ليست هى بيت الله الحرام أو المسجد الحرام ، ولكنها العلامة التى تدل على أن هنا بيت الله الحرام. وهناك أيضًا من المفسرين ومن المؤرخين الذين ذهبوا إلى أبعد من ذلك فى حديثهم عن كل من الكعبة والمسجد الحرام.. ومن ذلك ما ذكره الدكتور أحمد شلبى فى قوله: كانت الكعبة حرماً مقدساً عند العرب وكانت الشعائر الدينية تؤدى فى الكعبة.. ثم ضاق هذا البناء الصغير بزواره والحاجين إليه، ولذلك اصطلح العرب منذ عهود بعيده على اتخاذ جزء من الأرض حول الكعبة ليكون مكاناً للشعائر الدينية، وقدسوا هذا المكان وسموه حرماً.

ولما جاء الإسلام وفرضت الصلاة كانت الصلاة تؤدى فى هذا الجزء ولذلك سمى بالمسجد الحرام، وقد ظل ذلك الجزء من الأرض فراغاً لا يحيط به سور حتى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه كما كانت تحيط به البيوت من أكثر الجهات.

وبدءاً من عهد عمر بن الخطاب وحتى اليوم فقد أخذ الحكام فى توسيع المسجد الحرام عن طريق شراء الدور المحيطه بالمسجد حفاظاً عليه. وقد تواصل ذلك العمل حتى وصل المسجد إلى ما هو عليه الآن من مساحة كبيرة وغير مسبوقة طوال تاريخه .

والعلامة ابْن ظهيرة القرشى يقول لنا فى كتابه «الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف» إن الله تعالى ذكر المسجد الحرام فى كتابه العزيز فى نحو خمسة عشر موضعاً وبالتالى فقد اختلف فى المراد بالمسجد الحرام، فقيل بقاع الحرم وقيل الكعبة وما فى الحجر من البيت.

أما عن الآيات والسور التى جاء بها ذكر المسجد الحرام فهى كالتالى: فى سورة البقرة الآيات (١٤٤)-(١٤٩)-(١٥٠)-(١٩١)-(١٩٦)-(٢١٧) وفى سورة المائدة الآية (٢) والأنفال الآية (٣٤) والتوبة الآيات (٧)-(١٩)-(٢٨) وفى سورة الإسراء الآية (١) والحج الآية (٢٥) والفتح الآية (٢٥)و(٢٧) .

وهناك أحداث تاريخية ودينية فى غاية الأهمية قد ارتبطت بالمسجد الحرام.. من أهمها وأعظمها أنه كان ذلك المكان الذى بدأت منه رحلة الإسراء والمعراج. كما أن جبريل عليه السلام قد أم رسولنا الكريم فى الصلوات الخمس صبيحة المعراج عند الكعبة بالمسجد الحرام.

وللمسجد الحرام عدة أبواب سميت بأسماء مختلفة على مدى التاريخ كما أصبحت تحيط به الآن المآذن من كل جانب وعددها تسع مآذن، كما شملته يد التطوير حتى أصبح فيما هو عليه الآن.. خاصة بعد التوسعة السعودية الأخيرة وإضافة ٣ أدوار رئيسة للمسجد، وإمداده بالخدمات التى تساهم فى راحة الزائرين من الذين يفدون إلى السعودية سواء فى العمرة أو فى الحج.

** المسجد الأقصى .. ورحلة المعراج:

وإذا كان المسجد الحرام هو بداية رحلة رسولنا الكريم إلى السماء وبمصاحبة أمين الوحى جبريل عليه السلام -، فإن المسجد الأقصى كان هو بداية رحلة المعراج إلى هذه السموات والتى زارها النبى الكريم على مدى ليلة واحدة بدأت بعد صلاة العشاء وانتهت قرب صلاة الفجر.

وقد ذكر لنا القرآن الكريم المسجد الأقصى فى سورة الإسراء الآية (١) فى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي

بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. كما عظمه رسولنا الكريم فى أكثر من حديث شريف باعتباره من مساجد الله العظيمة التى يجب أن يشد لها الر حال.

والحديث عن المسجد الأقصى لا بد وأن نشير فى سياقه إلى المدينة التى استوعبت هذا المسجد الكريم وما ارتبط به فى دين الإسلام، وكذلك بعض ملامحه الإنشائية وتاريخ بنائه. إذ من المعروف أن هذا المسجد يوجد بمدينة القدس الشريفة أو ما يسميها بعض المؤرخين ببيت المقدس .

هذه المدينة تقع وسط فلسطين، فوق تل صخرى يبلغ ارتفاعه عن البحر ٧٦٢ متراً. كما أن مدينة القدس تبعد عن يافا بحوالى ٥ كيلومترات وتحيط بها عيون كثيرة تتفاوت فى غزارة مياهها.

والقدس القديمة أيام مسرى رسولنا الكريم كان بها آثار دينية كثيرة ارتبطت بكل من اليهودية والمسيحية وهى غنية لذلك بارتباطها بالعهدين القديم والجديد. كما تكثر بها المعابد والكنائس التى تتصل بأحداث التوارة والإنجيل.

ومن أهم جبال هذه المدينة المقدسة جبل الزيتون والذى شهد أغلب أحداث الديانة المسيحية وصراع عيسى عليه السلام مع أباطرة اليهود.

وهناك كلام تاريخى كثير يؤكد على أن مدينة القدس إنما هى فى الأصل مدينة عربية وليس كما يدعى اليهود عن تاريخها. ولعلى أؤكد هذه الحقيقة من واقع ما ذكره القرآن الكريم من أن هذه المدينة بها مسجد جاء إليه محمد عليه الصلاة والسلام مرتين، الأولى عند مسراه والثانية عند عودته من المعراج.

وليس معنى ارتباط هذه المدينة ببعض الأحداث الدينية الأخرى فى كل من اليهودية والمسيحية أنها ليست عربية، ومما يرويه المؤرخون فى هذا السياق أن مدينة القدس بها الصخرة المقدسة والتى انطلق من فوقها رسولنا الكريم عارجاً إلى السماء وبصحبته جبريل عليه السلام، هذه الصخرة المقدسة هى أيضاً معظمة لدى أصحاب كل من اليهودية والمسيحية.

ولعل ذلك يجعلنا نشير أيضاً وفى هذا السياق إلى أن هناك فرق بين الصخرة المقدسة أو قبة الصخرة وبين المسجد الأقصى.

ولقد أفرد العديد من المؤرخين وكتاب السيرة الدينية والنبوية صفحات كثيرة للحديث عن هذا المسجد الشريف ومن هؤلاء العلامة شمس الدين السيوطى فى كتابه المهم «إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى».

ومما أشار فيه من معلومات عن هذا المسجد الكريم قوله: للمسجد الأقصى أسماء كثيرة عرفت على مدى التاريخ وأن أشهرها الأقصى حيث آشار القرآن الكريم، وسمى بالأقصى لأنه كان أبعد المساجد التى تزار وقيل أيضاً لبعده عن الأقذار، وأنه ليس وراءه موضع عبادة. كما تحدث المؤلف ذاته عن فضائل هذا المسجد.

ولقد ظل المسجد الأقصى بعيداً عن سيطرة المسلمين الأوائل.. حتى تم فتح القدس فى عام ٦٣٦م أيام خلافة عمر بن الخطاب. ومنذ ذلك التاريخ بدأ المسلمون فى الاهتمام بهذا المسجد وتعميره وزيارته. حيث بنى عبد الملك بن مروان مسجد قبة الصخرة وجدد ابنه الوليد المسجد الأقصى.

وهناك روايات تقول إن دواد عليه السلام هو الذى بدأ بناء المسجد الأقصى.. واستكمله ابنه سليمان عليهما السلام. [1]، كما أن هناك المئات من الكتب التى تحدثت عن المسجد الأقصى معماريًا.. حيث تتبعت تطوره المعمارى والإنشائى، وما آل إليه حال هذا المسجد فى ظل احتلال إسرائيل لمدينة القدس.. وما يعتريه حاليا وما ينتظره من مشكلات ارتبطت برغبة اليهود المعلونة فى إقامة هيكل سيدنا سليمان على حد زعمهم على أنقاض المسجد الأقصى!!

وبداخلى إحساس قوى يؤكد أن هذا المسجد سوف يظل قوياً شامخاً ضد كل المحن حتى يتم استرداده مرة أخرى لأن عين الله ساهرة ترعاه.. كما ترعى كل أماكن المسلمين المقدسة.

(١) إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى - شمس الدين السيوطى ج ١ .